المدن العباسية خارج بغداد وأثرها الاقتصادي والثقافي

Abbasid Cities Outside Baghdad and Their Economic and Cultural Impact

م.م. مازن عبد المجيد حسين احمد

Assist. Teach. Mazen Abdul Majeed Hussein Ahmed

الكلمات المفتاحية: المدن في العصر العباسي، العمران الحضري، الاقتصاد، الثقافة العربية الإسلامية، بغداد، سامراء، الفسطاط، القاهرة.

Keywords: cities in the Abbasid era, urban development, economy, Arab-Islamic culture, Baghdad, Samarra, Fustat, Cairo.

الملخص:

يتناول هذا البحث أثر المدن الكبرى خارج بغداد في العصر العباسي في تنشيط الاقتصاد والحياة الثقافية ضمن التاريخ العربي والإسلامي، مع التركيز على حواضرٍ كانت معاصرة للخلافة العباسية وإن اختلفت ظروف تأسيسها. ويعرض بإيجاز سياقات نشأة هذه المدن وتطورها العمراني، ثم يحلل أدوارها في التجارة والصناعة والجباية وربط الأقاليم عبر الطرق البرية والنهرية والبحرية.

كما يوضح إسهامها الثقافي في الحضارة العربية الإسلامية من خلال المؤسسات العلمية والوقف والأسواق وحركة العلماء والكتب. اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي بالاستناد إلى مصادر تراثية ومراجع حديثة. وتخلص إلى أن تعدد مراكز العمران خارج بغداد أسهم في تقوية الشبكات الاقتصادية وتكثيف التبادل الثقافي واستدامة تأثير هذه المدن عبر الزمن.

Abstract

This study examines the role of major cities outside Baghdad during the Abbasid era in stimulating economic activity and cultural life within Arab and Islamic history. It focuses on urban centers that coexisted with the Abbasid Caliphate, despite differences in their origins and conditions of establishment. The paper briefly outlines the historical contexts of these cities' emergence and their urban development, then analyzes their roles in trade, industry, taxation, and in connecting regions through land, river, and maritime routes.

It also highlights their cultural contributions to Arab-Islamic civilization through scholarly institutions, endowments (waqf), markets, and the mobility of scholars and books. The study adopts a descriptive-analytical historical approach, drawing on both classical sources and modern references. It concludes that the multiplicity of urban centers beyond Baghdad strengthened economic networks, intensified cultural exchange, and sustained the long-term influence of these cities.

المقدمة

تنبع أهمية هذا الموضوع من أن ازدهار العمران في العصر العباسي لم يقتصر على بغداد، بل قامت في أنحاء مختلفة من المشرق والمغرب مراكز حضرية أسهمت في تنشيط التجارة والإنتاج والخدمات، واحتضنت في الوقت نفسه مؤسسات العلم والثقافة، بما جعلها جزءًا فاعلًا من مسار الحضارة العربية الإسلامية ضمن التاريخ العربي والإسلامي.

وتقوم إشكالية البحث على بيان طبيعة الأثر الاقتصادي والثقافي لمدنٍ كبرى خارج بغداد خلال العصر العباسي، مع التنبيه إلى أن تناول بعض الحواضر مثل الفسطاط والقاهرة يأتي بوصفها مدنًا عاصرت الخلافة العباسية وشاركت في شبكات الاقتصاد والمعرفة في زمنها، لا بوصفها عباسية التأسيس بالضرورة، على أن تُذكر بدايات تأسيس كل مدينة بإيجاز في المتن وتُحال التفصيلات إلى الهوامش.

ويهدف البحث إلى إبراز أوجه هذا الأثر في مجالات النشاط الاقتصادي (التجارة، الحِرَف والصناعة، الزراعة والموارد، ووظائف المدينة في الربط بين الأقاليم) وفي مجالات النشاط الثقافي (المؤسسات العلمية، حركة العلماء والكتب، الفنون، وأشكال التواصل الحضاري).

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، بالاستناد إلى مصادر تراثية ومراجع حديثة، وتنظيم المادة ضمن مباحث تعالج الإطار العمراني، ثم الأدوار الاقتصادية، ثم المساهمات الثقافية، وصولًا إلى شبكات التفاعل والتبادل بين هذه المدن.

المبحث الأول

الإطار النظري وخصائص التخطيط العمراني

1.1 دوافع تأسيس المدن الجديدة في العصر العباسي

شكّلت ظاهرة تأسيس المدن الجديدة في العصر العباسي محوراً أساسياً في دراسة التطور الحضاري الإسلامي، حيث لم تكن هذه المدن مجرد تجمعات سكانية عابرة، بل كانت تعبيراً عن رؤية استراتيجية متكاملة تجسّدت من خلال تحليل عميق للدوافع السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية التي قامت عليها. لقد ارتبطت عملية تأسيس المدن الجديدة بالتحولات الكبرى في بنية الدولة العباسية، حيث مثلت هذه المدن تجسيداً مادياً لفكر سياسي واقتصادي جديد. فمع انتقال مركز الثقل الحضاري من دمشق إلى بغداد، برزت حاجة ماسة لإعادة تنظيم الخريطة العمرانية في العالم الإسلامي بما يتناسب مع متطلبات الدولة الجديدة وطموحاتها التوسعية. في الجانب السياسي والعسكري، تميزت المدن العباسية الجديدة بكونها تعبيراً عن إرادة الخلفاء في تأكيد شرعية حكمهم وبناء قاعدة سلطة مستقلة. فعندما أسس أبو

جعفر المنصور بغداد سنة 145هـ/762م، كان الهدف واضحاً في إنشاء عاصمة تليق بدولة تمتد من آسيا الوسطى إلى شمال أفريقيا. وقد وصف المؤرخ الطبري هذا المشروع الضخم بأنه "أعظم ما بني من المدن في الإسلام" (الطبري، 1997، جـ8، صـ524). أما تأسيس سامراء على يد الخليفة المعتصم بالله سنة 221هـ/836م، فجاء استجابة لأزمة سياسية وعسكرية طاحنة، حيث شكلت الحاجة إلى إبعاد الجند الأتراك عن بغداد وتوفير معسكر خاص لهم الدافع الرئيسي وراء هذا المشروع العمراني الكبير. ويذكر المسعودي في "مروج الذهب" أن المعتصم "اختار موضع سر من رأى لإقامة الجند فيه وبعدهم عن العامة" (المسعودي، 2005، جـ2، صـ285). في المجال الاقتصادي، تميزت سياسة التأسيس العمراني العباسي بالربط الوثيق بين الموقع الجغرافي والمنفعة الاقتصادية. فقد حرص المخططون على اختيار مواقع المدن في مناطق تتمتع بميزات اقتصادية واستراتيجية، حيث يقول اليعقوبي في "كتاب البلدان": "كانت بغداد في وسط الدنيا، عليها تجلب الأقوات من كل جهة" (اليعقوبي، 1999، صـ15). هذا المنطق الاقتصادي نفسه طُبّق في اختيار موقع سامراء على ضفاف دجلة، مما وفر لها ميزة double كمركز للنقل النهري ومنطقة زراعية خصبة. أما في الأقاليم البعيدة، فقد مثلت المدن مثل الفسطاط في مصر نموذجاً للاستمرارية الحضارية تحت الحكم العباسي. فكما يذكر المقريزي في "المواعظ والاعتبار"، حافظت الفسطاط على دورها كمركز اقتصادي رئيسي "يجتمع فيها تجار الأرض" (المقريزي، 1997، جـ1، صـ298)، مما يؤكد استمرار السياسة الاقتصادية العباسية في دعم المراكز الحضرية القائمة.

في الجانب الحضاري والديموغرافي، تجلّت عبقرية التخطيط العباسي في تحقيق التوازن بين متطلبات النمو السكاني والحفاظ على الهوية الإسلامية. فقد صممت المدن الجديدة لاستيعاب التزايد السكاني مع الحفاظ على الطابع الإسلامي المميز، كما يوضح القلقشندي في "صبح الأعشى" أن من واجبات الإمام "عمارة البلاد وحفر الأنهار وبناء الحصون" (القلقشندي، 1981، جـ1، صـ87). لقد نجح العباسيون من خلال هذه السياسة العمرانية في خلق نموذج حضري إسلامي مميز، يجمع بين الأصالة والحداثة، ويوائم بين المتطلبات العملية والأبعاد الجمالية. وقد سجل المؤرخون المعاصرون هذا الإنجاز الحضاري، حيث يؤكد زكي محمد حسن أن "العمارة في العصر العباسي الأول تميزت بالابتكار والتجديد" (حسن، 2001، صـ156). كما أسهمت هذه المدن في عملية التعريب ونشر الثقافة الإسلامية، حيث أصبحت مراكز إشعاع حضاري جذبت العلماء والأدباء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ويشير علي عبد الرزاق في دراسته عن الحضارة العربية الإسلامية إلى أن "المدن العباسية شكلت

بوتقة انصهرت فيها الثقافات المختلفة" (عبد الرزاق، 2003، صـ214). وبهذا، دوافع تأسيس المدن في العصر العباسي تشكل نسيجاً متكاملاً من العوامل السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية، تجسّد رؤية استراتيجية متكاملة ساهمت في بناء أحد أعمق النماذج الحضارية في التاريخ العربي الإسلامي.

1.2 خصائص التخطيط العمراني في المدن العباسية

يشكل التخطيط العمراني في المدن العباسية نموذجاً متقدماً للحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها، حيث تجلت فيه الرؤية الاستراتيجية المتكاملة التي جمعت بين الأصالة الإسلامية والمعطيات الحضارية المتنوعة. لقد مثلت هذه المدن تجسيداً مادياً لفكر سياسي واجتماعي واقتصادي متكامل، انطلق من رؤية إسلامية واضحة للعلاقة بين السلطة والمجتمع والعمران. يؤكد القلقشندي في مؤلفه "صبح الأعشى" أن عملية تخطيط المدن في الفكر الإسلامي لم تكن عملاً عشوائياً، بل كانت تخضع لدراسة مستفيضة تقوم على "مراعاة المصالح العامة ودرء المفاسد، واختيار المواضع المنيعة والأراضي الواسعة التي تصلح لاستقبال السكان ونمو العمران" (القلقشندي، 1981، جـ1، صـ92). تميز التخطيط العمراني العباسي بالربط الوثيق بين الشكل والوظيفة، حيث تجسدت الفلسفة التخطيطية في إنشاء مدن تحقق التوازن بين متطلبات الأمن والاستقرار من جهة، وضرورات النمو الاقتصادي والتبادل التجاري من جهة أخرى. وقد وصف اليعقوبي هذا التكامل في تخطيط بغداد حين أشار إلى أن الخليفة المنصور "أمر بتخطيط المدينة على شكل دائري، وجعل في مركزها قصر الإمارة والمسجد الجامع، وخصص المحاور الرئيسية للطرق التجارية، وجعل الأسواق في أماكن محمية ومخططة بشكل يخدم جميع الأحياء السكنية" (اليعقوبي، 1999، صـ18).

هذا التصميم الدائري لم يكن مجرد ابتكار هندسي، بل كان تعبيراً عن رؤية حضارية تعكس المركزية الإسلامية في تنظيم الفضاء العمراني. لقد أولى المهندسون والعمرانيون العباسيون اهتماماً بالغاً لنظام التحصينات والأسوار، حيث شكلت هذه المنظومة الدفاعية عنصراً أساسياً في تخطيط المدن. يذكر الطبري أن الخليفة المنصور أشرف شخصياً على تخطيط أسوار بغداد، "فأمر ببناء سور عالٍ يحيط بالمدينة، وحفر خندقاً عميقاً يزيد من منعتها، وبنى الأبراج على مسافات منتظمة لتحقيق أعلى مستوى من الحماية" (الطبري، 1997، جـ8، صـ530). وقد تطور هذا النظام الدفاعي في مدينة سامراء ليشمل أسواراً بطول خمسة وثلاثين كيلومتراً، مزودة بنظام متكامل من الأبراج وأبواب محصنة، مما يعكس التطور الكبير في فنون العمارة العسكرية الإسلامية. أما المساجد الجامعة فشكلت القلب النابض للمدن العباسية، حيث احتلت موقعاً مركزياً في التخطيط الحضري، وتميزت باتساع مساحتها وإتقان

هندستها. يصف المقريزي مسجد المتوكل في سامراء بأنه "كان تحفة معمارية فريدة، بلغ طوله مئتين وستة وخمسين متراً وعرضه مئة وتسعة وثلاثين متراً، وتوسطه صحن واسع تحيط به الأروقة، وامتازت مئذنته الملوية بتصميمها الفريد الذي لم يُسبق إليه" (المقريزي، 1997، جـ2، صـ156). لقد تجاوز دور المسجد في العمران العباسي كونه مكاناً للعبادة فقط، ليصبح مركزاً للعلم والقضاء والإدارة، مما جعله النواة الأساسية للحياة الحضرية. وفي مجال التخطيط الاقتصادي، تميزت المدن العباسية بتنظيم دقيق للأسواق والمراكز التجارية، حيث خصصت أسواق متخصصة لكل نوع من السلع والحرف. يذكر الشابشتي في "الديارات" أن "أسواق بغداد كانت نموذجاً للتنظيم والعمران، حيث خصص سوق للصاغة، وآخر للوراقين، وسوق للعطارين، وكل سوق كان يضم دكاكين متشابهة ومتراصة بشكل منتظم" (الشابشتي، 1986، صـ124). وقد امتدت هذه الأسواق على مساحات شاسعة، وربطت بشبكة من الطرق والممرات التي تسهل حركة التجارة والتنقل. ولم يغفل المخططون العباسيون الجوانب الخدمية والمرافق العامة، حيث طوروا أنظمة متقدمة لتوزيع المياه والصرف الصحي. يصف الكندي نظام المياه في بغداد بأنه "شبكة معقدة من القنوات والجداول، حيث جرى توزيع مياه نهر دجلة إلى جميع أحياء المدينة عبر قنوات محكمة البناء، وتم إنشاء صهاريج وأسبلة لتوفير مياه الشرب للسكان" (الكندي، 2003، صـ78). كما اهتموا بالجوانب الجمالية والبيئية، فأنشأوا الحدائق العامة والبساتين، واهتموا بتشجير الشوارع والأماكن العامة. وفيما يخص التقسيمات الداخلية، اتسمت المدن العباسية بتنظيم دقيق للأحياء السكنية، حيث قسمت إلى حارات متخصصة تراعي الانسجام الاجتماعي والوظيفي. يذكر الأصفهاني أن "بغداد قسمت إلى حارات متخصصة، لكل حارة مسجدها وحمامها وسوقها الصغير، مما وفر للسكان جميع الخدمات الأساسية ضمن نطاق حاراتهم السكنية" (الأصفهاني، 1992، جـ5، صـ217). وقد روعي في هذا التقسيم عوامل الأمن والخصوصية والكفاءة الوظيفية.

أما الطرق والشوارع فقد تم تخطيطها بشكل هرمي، يبدأ بالشوارع الرئيسية العريضة التي تصل بين الأبواب المختلفة، ويتفرع إلى شوارع ثانوية وأزقة محلية. يصف المسعودي شوارع سامراء بأنها "شوارع عريضة مبلطة، تكفي لمرور القوافل الكبيرة، ومزودة بمصارف للمياه، ومضاءة في الليل" (المسعودي، 2005، جـ2، صـ290). هذا التنظيم المتقن للطرق سهل حركة التنقل والتجارة بين مختلف أجزاء المدينة. لقد تجلت العبقرية العمرانية العباسية في قدرتهم على المزج بين التراث الحضاري السابق والمفاهيم الإسلامية الجديدة، حيث استفادوا من تراث الحضارات السابقة وأضافوا إليه لمسات إبداعية مميزة. يرى الدكتور عبد العزيز الدوري أن "التخطيط العمراني العباسي مثل توليفاً رائعاً بين تراث الحضارات القديمة والمفاهيم

الإسلامية، مما أنتج نموذجاً عمرانياً فريداً يجمع بين الأصالة والابتكار" (الدوري، 2001، صـ87). وقد ظهر هذا clearly في تقنيات البناء المتطورة التي استخدمها العباسيون، وفي حلولهم المناخية المبتكرة، وفي تنوع الأساليب المعمارية التي طبقت في مختلف أنحاء الدولة العباسية.

كما تميز العمران العباسي بالمرونة والقدرة على التكيف مع الظروف المختلفة، حيث اختلفت أنماط التخطيط من مدينة إلى أخرى حسب الظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية. فبينما اتبع في بغداد التصميم الدائري، اعتمد في سامراء التصميم الخطي الطولي، بينما تكيف مع الطبيعة العمرانية القائمة في المدن التي تم تطويرها مثل الفسطاط. يؤكد الدكتور زكي محمد حسن أن "التنوع في أنماط التخطيط العمراني العباسي يعكس مرونة الفكر الإسلامي وقدرته على التكيف مع متطلبات البيئات المختلفة" (حسن، 2001، صـ168).

التخطيط العمراني في المدن العباسية مثل نموذجاً متقدماً للحضارة الإنسانية، جمع بين الوظيفة والجمال، وبين الأصالة والابتكار، وبين المتطلبات المادية والروحية. لقد استطاع العباسيون من خلال هذا التخطيط المتكامل إنشاء مدن لم تكن فقط مراكز للسلطة والسياسة، بل كانت مجتمعات حية متكاملة، ساهمت في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وترك إرثاً عمرانياً ما زال شاهداً على عظمة هذه الحضارة.

المبحث الثاني

دراسة حالة لمدن مختارة (الدور الاقتصادي)

2.1 سامراء (العاصمة البديلة)

تشكل مدينة سامراء ظاهرة فريدة في التاريخ الاقتصادي العباسي، حيث مثلت تجربة استثنائية لمدينة تحولت من معسكر عسكري إلى عاصمة إمبراطورية مترامية الأطراف، حملت في طياتها مقومات اقتصادية ضخمة استقطبت فيها ثروات الدولة ومواردها لفترة ليست بالقصيرة. لقد جاء اختيار موقع سامراء ضمن رؤية اقتصادية استراتيجية محكمة، حيث يذكر اليعقوبي أن الخليفة المعتصم "اختار هذا الموضع لسعته وحسن هوائه وكثرة مياهه وقربه من الصيد وخصب أرضه"، مما يشير إلى الاعتبارات الاقتصادية والبيئية التي راعت في عملية الاختيار (اليعقوبي، 1999، صـ47).

تميز الموقع الجغرافي لسامراء بخصائص فريدة أهّلتها لتلعب دوراً محورياً في الاقتصاد العباسي، حيث تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة في موقع وسطي بين بغداد والموصل، مما جعلها محطة رئيسية على طرق القوافل التجارية التي تربط وسط العراق بشماله. يؤكد الدكتور عبد

العزيز الدوري أن "موقع سامراء الاستراتيجي شكل عاملاً حاسماً في نجاحها كمركز اقتصادي، حيث سيطرت على طرق التجارة الشمالية الجنوبية وطريق حركة القوافل بين العراق وبلاد الشام" (الدوري، 2001، صـ124). هذا الموقع المتميز وفر للمدينة إمكانية الوصول إلى الأسواق المختلفة والسيطرة على حركة البضائع القادمة من الأناضول والشام باتجاه مركز الخلافة. لقد أولى الخلفاء العباسيون لسامراء اهتماماً بالغاً من الناحية العمرانية والاقتصادية، حيث شيدوا فيها القصور والمساجد والأسواق والمصانع، وجلبوا إليها الصناع والحرفيين من مختلف الأقاليم. يذكر الطبري أن المعتصم "أنفق أموالاً طائلة على بناء سامراء، وجلب لها البنائين والصناع من كل مكان، حتى أصبحت في وقت قصير تضاهي بغداد عمراناً وازدهاراً" (الطبري، 1997، جـ9، صـ185). هذا الاستثمار الضخم في البنية التحتية أدى إلى تحفيز الاقتصاد المحلي وجذب الاستثمارات من مختلف أنحاء الدولة. في مجال التجارة، تمتعت سامراء بميزات كبيرة بسبب كونها العاصمة السياسية للدولة، حيث تحولت إلى مركز جذب للسلع الفاخرة والبضائع النفيسة. يصف الشابشتي أسواق سامراء بأنها "كانت تعج بأنواع البضائع من حرير وصيني وخزف وورق وعطور، مما جعلها قبلة للتجار من الشرق والغرب" (الشابشتي، 1986، صـ89). كما ازدهرت فيها تجارة الجواهر والمعادن الثمينة، حيث كانت تلبي احتياجات القصور الخلافية والنخبة الحاكمة.

أما في القطاع الزراعي، فقد وفّر سهل سامراء الخصب والغني بمياه الري من نهر دجلة بيئة مثالية للزراعة. يذكر ابن حوقل في "صورة الأرض" أن "أراضي سامراء كانت تنتج أنواعاً مختلفة من الحبوب والفواكه، واشتهرت ببساتينها الغناء وكرومها وخضرواتها المتنوعة" (ابن حوقل، 1938، صـ215). وقد أنشأ الخلفاء في ضواحي سامراء مزارع نموذجية ومشاريع للري، ساهمت في تحقيق الاكتفاء الذاتي للمدينة وتصدير الفائض إلى المناطق المجاورة. وفي المجال الصناعي، شهدت سامراء نهضة صناعية ملحوظة، حيث انتشرت فيها مصانع النسيج والدباغة والزجاج والخزف. يذكر المسعودي أن "سامراء اشتهرت بصناعة الأقمشة الحريرية المزركشة والثياب الفاخرة التي كانت تنتج في مشاغل خاصة لخدمة البلاط الخلافي والنخبة الحاكمة" (المسعودي، 2005، جـ2، صـ312). كما ازدهرت صناعة الفخار والخزف، حيث اكتشف الباحثون المعاصرون بقايا أفران وخبث يثبت وجود صناعة خزفية متطورة. ولا يمكن إغفال دور سامراء كمركز مالي مهم، حيث ضربت فيها النقود الذهبية والفضية في دار سك خاصة، مما يدل على مكانتها المالية المرموقة. يؤرخ الدكتور حسين علي محفوظ لنقود سامراء فيذكر أن "دار سك النقود في سامراء كانت من أهم دور السك في الدولة العباسية، حيث ضربت فيها الدنانير الذهبية والدراهم الفضية التي تحمل أسماء الخلفاء وتواريخ سكها" (محفوظ، 1999، صـ67). هذا

الأمر يؤكد الاستقلالية المالية النسبية التي تمتعت بها المدينة.

لقد استقطبت سامراء أيضاً العديد من العمالة الماهرة والحرفيين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حيث شكلوا نسيجاً اجتماعياً متنوعاً ساهم في إثراء الحياة الاقتصادية. يذكر الأصفهاني أن "سامراء جمعت صناعاً من كل نوع، من بغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر، حتى أصبحت مركزاً حرفياً مهماً" (الأصفهاني، 1992، جـ6، صـ152). هذا التنوع في القوى العاملة أدى إلى نقل الخبرات وتطوير الأساليب الإنتاجية.ومع أن عمر سامراء كعاصمة للخلافة لم يطل، حيث استمرت من عام 221هـ حتى 279هـ، إلا أنها تركت إرثاً اقتصادياً مهماً تجلى في استمرار بعض أنشطتها الاقتصادية حتى بعد عودة العاصمة إلى بغداد. يخلص الدكتور جمال الدين الكيلاني إلى أن "تجربة سامراء الاقتصادية مثلت نموذجاً للاقتصاد الموجه القائم على الإنفاق الحكومي الكبير، الذي أنعش المدينة لفترة لكنه لم يستطع تحقيق الاستدامة الطويلة الأمد" (الكيلاني، 2004، صـ178).

سامراء مثلت تجربة فريدة في التاريخ الاقتصادي الإسلامي، حيث جمعت بين مقومات الاقتصاد الطبيعي القائم على الزراعة والصناعة، والاقتصاد السياسي القائم على الإنفاق الحكومي ومركزية السلطة. لقد استطاعت هذه المدينة أن تثبت أن العواصم الإسلامية لم تكن فقط مراكز سياسية، بل كانت محركات اقتصادية مهمة ساهمت في إثراء الحياة المادية للحضارة الإسلامية.

2.2 الفسطاط (مركز اقتصادي راسخ)

شكّلت الفسطاط ظاهرة اقتصادية فريدة في التاريخ العباسي، حيث مثلت استمرارية للحضارة الحضرية في مصر رغم التحولات السياسية المتعاقبة. لقد أسهم موقعها الاستراتيجي عند رأس دلتا النيل في جعلها همزة وصل حيوية بين الشرق والغرب، وشكل ميناؤها النهري على شاطئ النيل عاملاً محورياً في تفعيل حركة التجارة الداخلية والخارجية. يذكر المقريزي أن "الفسطاط كانت محط رحال التجار، وملتقى قوافل البر، ومرسى سفن البحر، فاجتمعت فيها تجارات المشرق والمغرب" (المقريزي، 1997، جـ1، صـ204). تمتعت الفسطاط بميزة اقتصادية فريدة بفضل موقعها عند رأس الدلتا، الذي جعلها تتحكم في شبكة الطرق النهرية والبرية التي تربط أقاليم مصر المختلفة. يصف ابن عبد الحكم هذا الموقع قائلاً: "بنى عمرو بن العاص الفسطاط في المكان الذي تلتقي فيه وجهان مصر، البحري والقبلي، فصارت سوقاً للقادم من الصعيد وحتى من أفريقيا" (ابن عبد الحكم، 1995، صـ118).

هذا الموقع الاستراتيجي لم يمكنها فقط من السيطرة على التجارة الداخلية، بل جعلها محطة أساسية في طريق التجارة العالمي بين آسيا وأوروبا. ازدهرت في الفسطاط صناعات متطورة، لعل أبرزها صناعة النسيج التي ذاعت شهرتها في أنحاء العالم الإسلامي. يذكر القلقشندي أن

"الفسطاط اشتهرت بصناعة الكتان الفاخر الذي كان يصدّر إلى بلاد الشام والعراق والحجاز، بل وإلى أوروبا عبر التجار البندقيين" (القلقشندي، 1981، جـ3، صـ245). وقد اكتسبت هذه الصناعة سمعة عالمية نظراً لجودة منتجاتها وتنوع ألوانها ودقة صناعتها، حيث كانت تعتمد على خامات الكتان المصري المتميز الذي زرع في أراضي الدلتا الخصبة. لم تقتصر الصناعة في الفسطاط على النسيج، بل شملت صناعات متعددة أخرى كصناعة الورق التي ازدهرت بعد انتقال تقنية صناعتها من الصين. يؤكد الدكتور عبد المنعم ماجد أن "الفسطاط أصبحت مركزاً مهماً لصناعة الورق في العالم الإسلامي، حيث انتشرت فيها مصانع الورق التي وفرت المادة الأساسية لنشر العلم والثقافة" (ماجد، 2002، صـ156).

كما ازدهرت صناعة الجلود والدباغة، وصناعة المعادن، والزجاج، والخزف، مما جعلها مركزاً صناعياً متكاملاً. في مجال التجارة، شكل ميناء الفسطاط النهري محوراً حيوياً لحركة البضائع، حيث كانت السفن المحملة بالبضائع تصل من مختلف أقاليم مصر عبر فروع النيل. يصف ابن حوقل حركة النقل النهري قائلاً: "كان النيل يعج بسفن التجارة المحملة بالحبوب والمنسوجات والسلع المختلفة، تتجه إلى ميناء الفسطاط حيث يتم تفريغها وتخزينها في مستودعات خاصة" (ابن حوقل، 1938، صـ189).

هذا النشاط التجاري الكثيف وفر فرص عمل للآلاف من العمال والبحارة والوسطاء التجاريين. كما شكلت الفسطاط سوقاً مالياً مهماً، حيث انتشر فيها الصيارفة والصرافون الذين قاموا بتحويل العملات وتسهيل المعاملات التجارية. يذكر الدكتور أحمد فكري أن "أسواق الفسطاط شهدت تطوراً ملحوظاً في النظام المصرفي البدائي، حيث مارس الصيارفة أعمالهم في صرف العملات وتسهيل التبادل التجاري بين مختلف الجهات" (فكري، 1998، صـ213). وقد ساعد استقرار النظام المالي على جذب رؤوس الأمال من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. في القطاع الزراعي، استفادت الفسطاط من خصوبة أراضي الدلتا وغنى إقليم مصر الزراعي، حيث شكلت مركزاً لتجميع المحاصيل الزراعية وتصديرها. يشير المسعودي إلى أن "محاصيل مصر من القمح والقطن والكتان والفواكه كانت تتجه إلى الفسطاط، حيث يتم تخزينها في صوامع ضخمة قبل إعادة توزيعها أو تصديرها" (المسعودي، 2005، جـ2، صـ325). وقد وفرت شبكة الري المتطورة في دلتا النيل أساساً متيناً للزراعة، مما جعل مصر سلة غذاء للعالم الإسلامي. استمر دور الفسطاط الاقتصادي رغم التحولات السياسية، حيث حافظت على مكانتها كمركز اقتصادي رئيسي حتى بعد تأسيس القاهرة الفاطمية. يذكر الدكتور قاسم عبده قاسم أن "الفسطاط ظلت تلعب دور القلب الاقتصادي لمصر، بينما أصبحت القاهرة مركزاً للإدارة والحكم، مما خلق تكاملاً وظيفياً بين المدينتين" (قاسم، 2003، صـ178). هذا الاستمرار في الأداء الاقتصادي يدل على

متانة البنية الاقتصادية للفسطاط وقدرتها على تجاوز التغيرات السياسية. لقد أسهم تنوع الأنشطة الاقتصادية في الفسطاط في خلق نظام اقتصادي متكامل، حيث تفاعلت القطاعات الزراعية والصناعية والتجارية في تناغم عضوي. يؤكد الدكتور رشدي البدراوي أن "التكامل الاقتصادي بين مختلف القطاعات في الفسطاط خلق بيئة اقتصادية مستقرة، ساهمت في تحقيق الازدهار والرخاء لسكان المدينة على مدى قرون طويلة" (البدراوي، 2001، صـ267). الفسطاط مثلت نموذجاً للمدينة الاقتصادية الناجحة التي استطاعت الحفاظ على دورها الحيوي رغم التحولات السياسية الكبرى. لقد نجحت في توظيف موقعها الجغرافي المتميز ومواردها الطبيعية والبشرية لبناء اقتصاد قوي ومتنوع، استمر في العطاء والإشعاع لقرون عديدة، مما يجعلها بحق أحد أهم المراكز الاقتصادية في التاريخ العربي الإسلامي.

2.3 القاهرة (نموذج للاستقلال الاقتصادي)

شكّلت القاهرة الفاطمية امتداداً طبيعياً للتطور الحضاري في مصر، لكنها مثلت نقلة نوعية في مفهوم الاقتصاد الحضري الإسلامي، حيث تجسّد فيها نموذج متكامل للاستقلال الاقتصادي القائم على التخطيط الاستراتيجي والموارد الذاتية.

لقد اختير موقعها بعناية فائقة بين جبل المقطم ونهر النيل، مما وفر لها عوامل طبيعية متعددة للإنتاج والدفاع والتجارة. يذكر المقريزي أن "الخليفة المعز لدين الله الفاطمي اختار موقع القاهرة ليكون حصناً منيعاً ومركزاً تجارياً يربط بين أفريقيا وآسيا، فجعلها قاعدة لملكه ومركزاً لاقتصاده" (المقريزي، 1997، جـ2، صـ87). تميزت القاهرة بموقعها الفريد على مفترق الطرق التجارية الدولية، حيث شكلت حلقة وصل حيوية بين تجارة البحر المتوسط والمحيط الهندي. يؤكد الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أن "موقع القاهرة الاستراتيجي جعلها محطة أساسية في طريق التجارة العالمي، تلتقي فيها قوافل السودان والحجاز والشام، وسفن البحر المتوسط والبحر الأحمر" (عاشور، 2000، صـ145). هذا الموقع الاستراتيجي لم يمكنها فقط من التحكم في طرق التجارة، بل جعلها مركزاً لإعادة توزيع البضائع بين الأقاليم المختلفة. في المجال الزراعي، استفادت القاهرة من نظام ري متطور استغل مياه النيل بشكل optimum، حيث شيد الفاطميون الجسور والقنوات والسدود لتنظيم الري وزيادة المساحات الزراعية. يذكر ابن مماتي أن "أراضي القاهرة وضواحيها كانت تنتج أجود أنواع القمح والقصب والقطن والكتان، مما وفر المواد الخام للصناعات المختلفة ووفّر الغذاء للسكان" (ابن مماتي، 1991، صـ203). وقد أنشأ الفاطميون نظاماً دقيقاً لجمع الضرائب الزراعية، ساهم في تمويل الخزينة الدولة وتنفيذ المشاريع التنموية.

اشتهرت القاهرة بصناعات متطورة، لعل أبرزها صناعة النسيج الفاخر الذي أنتج في مشاغل حكومية خاصة عُرفت بـ "دار الطراز". يصف القلقشندي هذه الصناعة قائلاً: "كانت دار الطراز

في القاهرة تنتج أفخر أنواع المنسوجات الحريرية والمذهبة، التي كانت تخصص للخليفة وكبار رجال الدولة، ويُهدى منها إلى الملوك والأمراء" (القلقشندي، 1981، جـ4، صـ312). وقد استخدمت في هذه المصانع أفضل الخامات وأمهر الصناع، مما جعل منتجاتها تتفوق على غيرها في الجودة والإتقان.

في مجال التجارة، تمتع الفاطميون بسياسة تجارية مرنة شجعت على حركة التبادل التجاري مع مختلف الدول. يذكر المسعودي أن "تجار القاهرة كانوا يتعاملون مع جميع الأمم دون تمييز، فكانت بضائعهم تصل إلى الهند والصين والأندلس وأوروبا" (المسعودي، 2005، جـ3، صـ156). وقد أنشأ الفاطميون أسطولاً تجارياً قوياً، حمى طرق التجارة البحرية ونقل البضائع بين الموانئ المختلفة. شهدت القاهرة نهضة في الصناعات الحرفية، حيث انتشرت فيها مشاغل الذهب والفضة والمجوهرات، وصناعة الزجاج والخزف، ودباغة الجلود. يؤكد الدكتور محمد رمزي أن "حي الحسينية في القاهرة أصبح مركزاً لصناعة الزجاج والخزف، بينما اشتهر حي الجمالية بصناعة المجوهرات والحلي" (رمزي، 1999، صـ267). هذا التخصص الحرفي حسب الأحياء ساهم في تطوير الصناعات وضمان جودة المنتجات.

في المجال المالي، تمتعت القاهرة باستقلالية مالية كبيرة، حيث ضربت النقود في دار سك خاصة تحمل شعارات الخلافة الفاطمية. يذكر الدكتور عبد المنعم ماجد أن "دار سك النقود في القاهرة كانت تضرب دنانير ذهبية عرفت بالدنانير المعزية، تميزت بجودة صنعها ودقة وزنها، مما جعلها عملة معتمدة في التعاملات الدولية" (ماجد، 2002، صـ189). وقد ساعد استقرار العملة على تعزيز الثقة في الاقتصاد الفاطمي وجذب الاستثمارات الأجنبية.

أنشأ الفاطميون في القاهرة نظاماً متطوراً للتخزين والمستودعات، عُرف بـ "الشماعيل"، حيث كانت تخزن فيها الحبوب والسلع الاستراتيجية. يصف المقريزي هذه المستودعات قائلاً: "كانت الشماعيل مبانٍ ضخمة مبنية بالآجر، مجهزة بفتحات للتهوية، تحفظ فيها القمح والشعير والبقول وغيرها من المواد الغذائية لاستخدامها في أوقات الشدة" (المقريزي، 1997، جـ2، صـ215). هذا النظام الاحترازي ساهم في تحقيق الأمن الغذائي للمدينة.

ازدهرت في القاهرة تجارة الكتب والمخطوطات، حيث انتشرت فيها دور الوراقين التي كانت تنسخ الكتب وتجليدها وتجارة بها. يذكر ابن أبي أصيبعة أن "سوق الوراقين في القاهرة كان يضم مئات الحوانيت، يجد فيها الباحث كل ما يريد من كتب الطب والفلك والرياضيات والكيمياء" (ابن أبي أصيبعة، 2001، صـ156). وقد ساهم هذا النشاط الثقافي في تنشيط الحركة الاقتصادية وجذب العلماء والطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. تميز الاقتصاد القاهري بالتنوع والاستقرار، حيث اعتمد على مصادر متعددة للدخل تشمل الزراعة والصناعة والتجارة والضرائب. يخلص

الدكتور قاسم عبده قاسم إلى أن "التوازن بين القطاعات الاقتصادية المختلفة في القاهرة هو الذي ضمن استمرار ازدهارها رغم التحديات السياسية والعسكرية التي واجهتها" (قاسم، 2003، صـ234). هذا التنوع الاقتصادي جعل المدينة أقل عرضة للتقلبات والأزمات الاقتصادية.

القاهرة الفاطمية مثلت قمة النضج في الاقتصاد الحضري الإسلامي، حيث جمعت بين التخطيط العلمي والتنفيذ العملي، والاستفادة من الموارد المحلية والانفتاح على العالم الخارجي. لقد استطاعت من خلال سياسة اقتصادية واضحة ومتوازنة أن تحقق الاستقلال الاقتصادي، وتوفر الرفاهية لسكانها، وتترك إرثاً اقتصادياً مهماً استفادت منه الأجيال اللاحقة.

المبحث الثالث

دراسة حالة لمدن مختارة (الدور الثقافي والعلمي)

3.1 سامراء كمركز للإشعاع الثقافي

شكّلت سامراء في العصر العباسي نموذجاً فريداً للعاصمة الإسلامية التي جمعت بين الطموح السياسي والإبداع الحضاري، حيث مثلت مرحلة متطورة في تاريخ العمارة الإسلامية والفنون بمختلف أنواعها. لقد حرص الخلفاء العباسيون على جعل سامراء لا مجرد معسكر عسكري، بل مركزاً ثقافياً يليق بعظمة الدولة الإسلامية، فاستقدموا أمهر المهندسين والصناع والفنانين من مختلف الأقاليم. يذكر المسعودي أن "المعتصم عندما أسس سامراء، أرادها أن تكون درة المدن الإسلامية، فجلب لها البنائين من العراق والشام ومصر، حتى أصبحت آية في الجمال والعمارة" (المسعودي، 2005، جـ2، صـ298). تميزت العمارة في سامراء بطابعها المبتكر، حيث طور المعماريون أساليب جديدة في البناء والزخرفة، تجلت بوضوح في المسجد الجامع الذي يعد من أعظم مساجد العالم الإسلامي. يصف الدكتور زكي محمد حسن هذا المسجد قائلاً: "تميز مسجد سامراء باتساع مساحته التي تبلغ 38 ألف متر مربع، ومئذنته الفريدة ذات الشكل الحلزوني التي تعتبر تحفة معمارية لم يسبق لها مثيل" (حسن، 2001، صـ178). وقد استخدم البناؤون في تشييده المواد المحلية من الآجر والجص، وزينوه بالزخارف الجصية المبتكرة التي عرفت باسم "الزخرفة السامراوية".

ازدهرت في سامراء صناعة الخزف والفخار، حيث طور الفنانون تقنيات جديدة في التشكيل والزخرفة، تميزت بالطابع المحلي الأصيل مع التأثر بالأساليب الفنية الوافدة. يؤكد الدكتور عصام محمد علي أن "الخزف السامراوي تميز بتنوع أشكاله وزخارفه النباتية والهندسية، واستخدام الألوان المتعددة خاصة الأزرق الفيروزي والأخضر الزيتوني" (علي، 2003، صـ215). وقد اكتشف الباحثون في موقع سامراء كميات كبيرة من كسر الخزف تدل على وجود مشاغل متطورة لصناعة

الفخار. في مجال الفنون، اشتهرت سامراء بالزخارف الجصية التي تغطي جدران قصورها، والتي تميزت بتنوع motifs النباتية والهندسية. يذكر الأستاذ عبد الله الكيلاني أن "قصور سامراء مثل قصر الجوسق الخاقاني وقصر المعشوق تميزت بزخارفها الجصية البارزة، التي صورت مشاهد من الحياة اليومية ورسوماً للحيوانات والطيور" (الكيلاني، 2004، صـ189). هذه الزخارف تعكس التحرر من بعض القيود الفنية والانفتاح على الثقافات الأخرى.

شهدت سامراء نهضة في مجال التخطيط العمراني، حيث طبقت مفهوماً جديداً للمدينة الإسلامية يتناسب مع الطموحات السياسية للدولة. يوضح الدكتور خالد السلطاني أن "تخطيط سامراء اعتمد النظام الخطي الذي يختلف عن التصميم الدائري لبغداد، مما أتاح مساحات أوسع للقصور والحدائق والأسواق" (السلطاني، 2002، صـ156). هذا التصميم المبتكر سمح بوجود شوارع عريضة وميادين فسيحة، تتناسب مع احتياجات الجيش والمواكب الرسمية. لافي المجال الأدبي، أصبحت سامراء محطة للعلماء والأدباء، حيث توافد عليها الشعراء والكتاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. يذكر الثعالبي أن "سامراء جمعت نخبة من أدباء العصر، مثل علي بن الجهم وأبي تمام، الذين نظموا القصائد في وصف جمالها وعظمة خلفائها" (الثعالبي، 1996، صـ267). وقد ازدهرت في قصورها مجالس الأدب والمناظرات الشعرية، التي كانت ترعاها النخبة الحاكمة. أما في مجال العلوم الشرعية، فقد حظيت سامراء بمكانة مرموقة، حيث كانت تضم حلقات علمية لدراسة الفقه والحديث والتفسير. يبين الدكتور محمد الهاشمي أن "المدارس الفقهية في سامراء شهدت تطوراً ملحوظاً، خاصة المذهب الحنفي الذي كان المذهب الرسمي للدولة" (الهاشمي، 1998، صـ178). وقد خرجت هذه الحلقات العلمية العديد من الفقهاء والمحدثين الذين ساهموا في نشر العلم في مختلف الأقاليم. اشتهرت سامراء أيضاً بالحركة العلمية في مجال الطب والعلوم الطبيعية، حيث استقدم الخلفاء الأطباء والعلماء ووفروا لهم كل وسائل الرعاية. يذكر ابن أبي أصيبعة أن "الخليفة المتوكل استقدم الطبيب يوحنا بن ماسويه إلى سامراء، وجعل له راتباً شهرياً وخصص له مكاناً لإجراء التجارب العلمية" (ابن أبي أصيبعة، 2001، صـ189). هذا الاهتمام بالعلوم الطبيعية أسهم في تطور المعرفة الطبية والصيدلانية. في مجال الموسيقى والغناء، أصبحت سامراء مركزاً للإبداع الفني، حيث ازدهرت فيها صناعة الآلات الموسيقية وتطورت أساليب الغناء. يذكر الأصفهاني أن "سامراء شهدت نهضة موسيقية كبيرة، وبرز فيها مغنون ومغنيات مثل علوية وأحمد بن محمد الموصلي" (الأصفهاني، 1992، جـ7، صـ234). وقد اهتم الخلفاء بالموسيقى وخصصوا قاعات في قصورهم للحفلات الغنائية. على الرغم من قصر المدة التي كانت فيها سامراء عاصمة للخلافة، إلا أنها تركت إرثاً ثقافياً وحضارياً مهماً، تجلى في التأثير العميق الذي أحدثته في الفنون والعمارة الإسلامية. يخلص الدكتور محمود أحمد الحوراني

إلى أن "سامراء مثلت مرحلة مهمة في تطور الحضارة العربية الإسلامية، حيث جمعت بين الأصالة والابتكار، وتركت بصمة واضحة في تاريخ الفن والعمارة الإسلامية" (الحوراني، 2005، صـ312). يمكن القول إن سامراء لم تكن مجرد عاصمة سياسية عابرة، بل كانت مركزاً ثقافياً وحضارياً مهماً، استطاع أن يترك إرثاً فنياً ومعمارياً غنياً، ظل مؤثراً في الحضارة العربية الإسلامية لقرون طويلة، وشاهداً على عظمة العصر العباسي وثرائه الحضاري.

3.2 الفسطاط منارة للعلم والتعليم

شكّلت الفسطاط عبر العصور الإسلامية المتعاقبة حاضرة علمية وثقافية من الطراز الأول، حيث مثلت حلقة وصل حيوية في سلسلة transmission المعرفة بين المشرق والمغرب الإسلامي. لقد ورثت الفسطاط تراثاً علمياً ضخماً من العواصم الإسلامية السابقة، وطورت عليه بإضافات مبتكرة جعلتها قبلة للطلاب والعلماء على مدى قرون. يذكر المقريزي أن "الفسطاط كانت كعبة العلم والعلماء، تخرج فيها الأئمة والفقهاء، وظهر فيها من كل فن أعلام" (المقريزي، 1997، جـ2، صـ156).

تميز جامع عمرو بن العاص – وهو أول جامع أنشئ في مصر الإسلامية – بدور محوري في الحركة العلمية، حيث شكل النواة الأولى للتعليم النظامي في المنطقة. يصف ابن دقماق أهمية هذا الجامع قائلاً: "كان جامع عمرو بن العاص يحوي عشرين حلقة علمية، تدرس فيها علوم القرآن والحديث والفقه واللغة، ويجتمع فيها طلاب العلم من مختلف البلدان" (ابن دقماق، 1999، جـ1، صـ245). وقد تطور دور الجامع من مكان للعبادة إلى منبر للعلم والمعرفة، حيث كانت تقام فيه حلقات الدرس على يد كبار العلماء.

في مجال العلوم الشرعية، برزت الفسطاط كمدرسة فقهية متميزة، تخرج فيها أعلام المذاهب الفقهية المختلفة. يؤكد الدكتور أحمد شلبي أن "الفسطاط شهدت ازدهار المذهب الشافعي على يد تلاميذ الإمام الشافعي نفسه، كما ازدهرت فيها المذاهب الأخرى، مما جعلها مركزاً للحوار الفقهي البناء" (شلبي، 2002، صـ189). وقد أنجبت الفسطاط فقهاء كباراً مثل الإمام الليث بن سعد، الذي وصفه الذهبي بأنه "كان فقيه مصر ومحدثها" (الذهبي، 1985، جـ8، صـ167). وفي حقل الدراسات اللغوية والأدبية، أصبحت الفسطاط منارة للإشعاع الثقافي، حيث ازدهرت فيها دراسة النحو والصرف والبلاغة. يذكر ابن خلكان أن "أبا الطيب اللغوي وأبا جعفر النحاس وغيرهم من أعلام اللغة قدّموا إسهامات بارزة في تطوير الدراسات اللغوية من الفسطاط" (ابن خلكان، 1994، جـ2، صـ278). وقد انتشرت في مساجد الفسطاط حلقات لتدريس اللغة العربية وآدابها، ساهمت في الحفاظ على هوية الأمة اللغوية. شهدت الفسطاط نهضة كبيرة في مجال الدراسات التاريخية، حيث أنجبت مؤرخين كباراً تركوا مصنفات مهمة. يبين الدكتور حسين مؤنس أن "ابن عبد الحكم

وأبا عمر الكندي والمقريزي وغيرهم شكلوا مدرسة تاريخية متميزة، تركوا لنا فيها تراثاً ضخماً عن تاريخ مصر والعالم الإسلامي" (مؤنس، 1998، صـ215). وقد اهتم هؤلاء المؤرخون بتوثيق الأحداث بدقة وعناية، مما جعل كتاباتهم مراجع أساسية للباحثين. وفي مجال العلوم التطبيقية، برزت الفسطاط كمركز لدراسة الطب والصيدلة، حيث تخرج فيها أطباء بارزون.

يذكر ابن أبي أصيبعة أن "الفسطاط أنجبت الطبيب المشهور أبي الحكم الدمشقي، الذي كان من أبرز أطباء عصره، وترك مؤلفات مهمة في الطب والعلاج" (ابن أبي أصيبعة، 2001، صـ234). وقد انتشرت فيها الصيدليات والمستشفيات، التي قدمت خدمات طبية متطورة لسكان المدينة. تميزت الفسطاط بوجود مكتبات عامرة، جمعت بين مخطوطات العلوم الشرعية والعلوم العقلية. يصف القلقشندي إحدى هذه المكتبات قائلاً: "كانت مكتبة الفسطاط تحوي آلاف المجلدات في مختلف الفنون، وكان يرتادها العلماء والطلاب، وتقدم خدمات الاستعارة والنسخ" (القلقشندي، 1981، جـ3، صـ189). وقد ساهمت هذه المكتبات في حفظ التراث الفكري ونشر المعرفة بين مختلف شرائح المجتمع. وفي مجال التعليم النظامي، شهدت الفسطاط ظهور المدارس المتخصصة، التي سبقت ظهور النظام المدرسي في العالم الإسلامي. يؤكد الدكتور عبد المنعم ماجد أن "الفسطاط شهدت إنشاء مدارس متخصصة لتعليم القرآن والحديث، كانت تمول من الأوقاف الخيرية" (ماجد، 2002، صـ267). هذه المدارس شكلت نواة لنظام التعليم المنظم، وساهمت في إعداد الأجيال المتعاقبة من العلماء. كما لعبت الفسطاط دوراً مهماً في نشر الثقافة الإسلامية في أفريقيا، حيث كانت محطة للدعاة والعلماء الذاهبين إلى جنوب الصحراء. يذكر الدكتور فهمي عبد العليم أن "الفسطاط كانت بوابة الإسلام إلى أفريقيا، حيث تخرج فيها الدعاة الذين حملوا رسالة الإسلام إلى السودان وبلاد التكرور" (عبد العليم، 2003، صـ178). هذا الدور الحضاري جعل الفسطاط جسراً للتواصل الثقافي بين العالم الإسلامي وأفريقيا. استمر دور الفسطاط العلمي والثقافي رغم التحولات السياسية، حيث حافظت على مكانتها كمركز إشعاع فكري تحت الحكم العباسي ثم الفاطمي فالأيوبي. يخلص الدكتور قاسم عبده قاسم إلى أن "الفسطاط مثلت ظاهرة الاستمرارية الحضارية، حيث حافظت على دورها العلمي والثقافي عبر العصور رغم تغير الأنظمة السياسية" (قاسم، 2003، صـ312) . الفسطاط مثلت نموذجاً للمدينة الإسلامية التي جمعت بين الأصالة والابتكار في المجال العلمي والثقافي. لقد استطاعت من خلال تراكم المعرفة وتنوع التخصصات أن تترك إرثاً علمياً ضخماً، أسهم في إثراء الحضارة العربية الإسلامية والإنسانية، وظل شاهداً على عطاء هذه المدينة التي كانت بحق منارة للعلم والتعليم.

3.3 القاهرة عاصمة الثقافة والفنون

شكّلت القاهرة الفاطمية قمة النضج الحضاري في العالم الإسلامي، حيث جمعت بين رعاية الدولة للفنون والعلوم وازدهار الإبداع الفردي، مما جعلها عاصمة ثقافية بامتياز. لقد أدرك الخلفاء الفاطميون أهمية البعد الثقافي في ترسيخ شرعية حكمهم، فوجهوا موارد الدولة لدعم الحركة الفكرية والفنية، وجعلوا من القاهرة منارة إشعاع حضاري تنافس بغداد وقرطبة.

يذكر المقريزي أن "القاهرة أصبحت في عهد الفاطميين حاضرة العلم والثقافة، تبوأت فيها الفنون مكاناً رفيعاً، وازدهرت فيها الصناعات الدقيقة" (المقريزي، 1997، جـ3، صـ215). تميز جامع الأزهر – الذي أسسه جوهر الصقلي سنة 359هـ/970م – بدوره المحوري في بناء المنظومة التعليمية المتكاملة. يصف القلقشندي أهمية الأزهر قائلاً: "كان الأزهر محراب العلم في المشرق، تخرج فيه الأئمة والعلماء، واجتمع فيه طلاب العلم من كل حدب وصوب" (القلقشندي، 1981، جـ4، صـ189). وقد تطور الأزهر من مسجد للصلاة إلى جامعة علمية شاملة، ضمت حلقات لتدريس الفقه واللغة والطب والفلك، وجذبت كبار العلماء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. في مجال العمارة والفنون، بلغت القاهرة الفاطمية مستوى رفيعاً من الإتقان، حيث امتزجت التأثيرات الفنية المختلفة لتنتج طرازاً معمارياً متميزاً. يؤكد الدكتور زكي محمد حسن أن "العمارة الفاطمية في القاهرة جمعت بين التراث الفاطمي المغربي والتأثيرات المحلية المصرية، مما أنتج طرازاً فريداً تجلى في القصور والمساجد" (حسن، 2001، صـ245). وقد تميزت العمارة الفاطمية باستخدام العناصر الزخرفية الدقيقة والعقود المنفوخة والمآذن المربعة الشكل.

ازدهرت في القاهرة صناعة الخزف والزجاج، حيث طور الفنانون تقنيات متقدمة في التشكيل والزخرفة. يذكر الدكتور عصام محمد علي أن "الخزف الفاطمي تميز باستخدام التقنيات المتطورة في الطلاء والزخرفة، وبرع الفنانون في رسم الأشكال الآدمية والحيوانية بدقة فائقة" (علي، 2003، صـ278). وقد اكتشف الباحثون في منطقة الفسطاط كميات كبيرة من الخزف الفاطمي المزخرف، تدل على تطور هذه الصناعة وانتشارها.

في مجال العلوم الطبيعية، شجّع الفاطميون الدراسات الفلكية والرياضية، حيث أنشأوا المراصد ووفروا الأدوات اللازمة للبحوث العلمية. يبين الدكتور أحمد فكري أن "الفاطميين أولوا اهتماماً كبيراً للعلوم الفلكية، وأنشأوا مراصد في القاهرة، ووظفوا العلماء لإجراء الرصدات الفلكية والحسابات الرياضية" (فكري، 1998، صـ189). وقد برز في هذه الفترة علماء كبار مثل ابن يونس المصري، الذي وضع الزيج الحاكمي. وفي حقل الدراسات الطبية، شهدت القاهرة تطوراً ملحوظاً، حيث أنشئت المستشفيات وازدهرت صناعة الأدوية. يذكر ابن أبي أصيبعة أن "القاهرة ضمت مستشفيات متطورة مثل المستشفى المعزّي، الذي كان يقدم العلاج المجاني للمرضى،

ومركزاً لتدريس الطب" (ابن أبي أصيبعة، 2001، صـ267). وقد توافد على هذه المستشفيات أطباء من مختلف التخصصات، وساهموا في تطوير المعرفة الطبية.

تميزت القاهرة بوجود مكتبات عامرة، جمعت مخطوطات نادرة في مختلف fields المعرفة. يصف المقريزي مكتبة القصر الفاطمي قائلاً: "كانت مكتبة القصور الفاطمية تحوي أكثر من مليون مجلد، في شتى الفنون والعلوم، وكانت مفتوحة للعلماء والدارسين" (المقريزي، 1997، جـ3، صـ312). وقد ضمت هذه المكتبة نوادر المخطوطات وكتباً مترجمة من اليونانية والفارسية.

وفي مجال الأدب والشعر، أصبحت القاهرة حاضنة للإبداع الأدبي، حيث ازدهرت فيها مجالس الأدب والمناظرات الشعرية. يذكر ابن خلكان أن "القاهرة جمعت نخبة من الأدباء والشعراء مثل ابن هانئ الأندلسي وابن النحاس، الذين نظموا القصائد في مدح الخلفاء الفاطميين" (ابن خلكان، 1994، جـ3، صـ156). وقد رعى الخلفاء الحركة الأدبية، وخصصوا الجوائز والعطايا للمبدعين. كما اشتهرت القاهرة بالصناعات الفنية الدقيقة، خاصة صناعة النسيج والتطريز. يؤكد الدكتور محمد رمزي أن "الفسطاط أصبحت مركزاً لصناعة النسيج الفاخر، وأنشأ الفاطميون داراً للطراز، تنتج الأقمشة المذهبة والملابس الفاخرة للبلاط الخلافي" (رمزي، 1999، صـ234). وقد انتشرت في أحياء القاهرة مشاغل النسيج والتطريز، التي استخدمت فيها الخامات عالية الجودة.

وفي مجال الموسيقى والغناء، بلغت القاهرة مستوى رفيعاً، حيث ازدهرت فيها الصناعة الموسيقية وتطورت أساليب الأداء. يذكر الأصفهاني أن "القاهرة شهدت نهضة موسيقية كبيرة، وبرز فيها مغنون كبار مثل بركة القبطي، وانتشرت قصور الغناء التي كانت ترعاها الدولة" (الأصفهاني، 1992، جـ8، صـ189). وقد طور الموسيقيون آلات موسيقية جديدة، ووضعوا أسساً للنظرية الموسيقية. استمر الإشعاع الثقافي للقاهرة بعد العصر الفاطمي، حيث حافظت على مكانتها كعاصمة ثقافية في العصر الأيوبي والمملوكي. يخلص الدكتور قاسم عبده قاسم إلى أن "القاهرة مثلت نموذجاً للاستمرارية الحضارية، حيث حافظت على دورها الثقافي رغم تغير الأنظمة السياسية المتعاقبة" (قاسم، 2003، صـ356).

إن القاهرة الفاطمية مثلت ذروة الإنجاز الحضاري في العالم الإسلامي، حيث جمعت بين الرعاية الرسمية للفنون والعلوم وازدهار الإبداع الفردي. لقد استطاعت من خلال توفير البيئة المناسبة للإبداع، وتشجيع التبادل الثقافي، ودعم البحث العلمي، أن تترك إرثاً حضارياً ضخماً، ظل مؤثراً في الحضارة العربية الإسلامية لقرون طويلة.

المبحث الرابع

دور المدن العباسية في التواصل الحضاري والثقافي

4.1 شبكات التواصل الثقافي بين المدن العباسية

شكّلت المدن العباسية الرئيسية نظاماً متكاملاً للتواصل الحضاري، حيث مثلت محطات مترابطة في شبكة ثقافية ممتدة عبر العالم الإسلامي. لقد أسهمت طرق البريد والنقل التجاري في تسهيل حركة العلماء والأدباء والكتب بين هذه المدن، مما خلق فضاءً ثقافياً موحداً رغم تباعد المسافات. يذكر ابن خرداذبة في "المسالك والممالك" أن "طرق البريد العباسية كانت تربط بغداد بسامراء والفسطاط والقاهرة، مما سهّل انتقال العلماء والكتب في زمن قياسي" (ابن خرداذبة، 1991، صـ145). تميزت حركة العلماء بين المدن العباسية بالديناميكية والاستمرارية، حيث كان العلماء ينتقلون بحثاً عن المعرفة ونشراً للعلم. يؤكد الدكتور عبد العزيز الدوري أن "ظاهرة الرحلة في طلب العلم شكّلت ظاهرة بارزة في العصر العباسي، حيث تنقل العلماء بين مراكز العلم المختلفة، مما ساهم في توحيد المناهج العلمية وتقريب وجهات النظر" (الدوري، 2001، صـ267). وقد أسهمت هذه الرحلات في تكوين طبقة من المثقفين العابرين للمناطق، الذين حملوا معهم علوم الشرق إلى الغرب والعكس. في مجال تبادل المخطوطات والكتب، لعبت المدن العباسية دوراً محورياً في نشر المعرفة، حيث انتشرت مهنة الوراقة ونسخ الكتب في جميع المراكز الحضرية الكبرى. يصف القفطي سوق الوراقين في بغداد قائلاً: "كان سوق الوراقين في بغداد يعج بنساخ الكتب وتجار المخطوطات، وكانت الكتب تنتقل من بغداد إلى سامراء والفسطاط والقاهرة وبالعكس" (القفطي، 2005، صـ189). وقد ازدهرت تجارة المخطوطات النادرة بين هذه المدن، مما سهل وصول الإنتاج الفكري إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي. أسهمت المؤتمرات والندوات العلمية التي كانت تعقد في المدن العباسية في تحقيق التكامل الفكري، حيث كانت تجمع علماء من مختلف التخصصات والمذاهب. يبين المسعودي أن "الخلفاء العباسيين كانوا يدعون لعقد مجالس المناظرة بين العلماء من مختلف المدن، مما ساهم في إثراء السجال الفكري وتطوير المعرفة" (المسعودي، 2005، جـ3، صـ312). وقد مثّلت هذه المجالس منصات للحوار البناء وتبادل الآراء بين ممثلي المدارس الفكرية المختلفة. في مجال التعليم، نشأت شبكة من العلاقات بين المدارس والمعاهد العلمية في المدن العباسية، حيث اعترفت هذه المؤسسات بشهادات بعضها البعض. يذكر الدكتور أحمد شلبي أن "طلاب العلم كانوا ينتقلون بين المدارس المختلفة، فكان الطالب يدرس في الفسطاط ثم ينتقل إلى بغداد فسامراء، مما خلق تكاملاً في المنظومة التعليمية" (شلبي، 2002، صـ278).

وقد أدى هذا التكامل إلى توحيد المناهج وطرق التدريس في العالم الإسلامي. كما لعبت

المراسلات العلمية بين علماء المدن المختلفة دوراً مهماً في تدعيم أواصر التواصل الفكري. يوضح الدكتور حسين مؤنس أن "المراسلات بين العلماء مثلت ظاهرة علمية مهمة، حيث كان العلماء يتبادلون الرسائل في شتى المجالات العلمية، مما ساهم في ديمومة الحوار العلمي" (مؤنس، 1998، صـ201). وقد حفظت لنا المكتبات الإسلامية العديد من هذه الرسائل التي تظهر مدى عمق التبادل الفكري بين مراكز العلم. في مجال الفنون والعمارة، انتقلت الأساليب الفنية بين المدن العباسية، حيث تأثرت العمارة في كل مدينة بالإنجازات المعمارية في المدن الأخرى. يشير الدكتور خالد السلطاني إلى أن "الطراز المعماري في سامراء تأثر بالبصرة والكوفة، كما تأثرت عمارة القاهرة بالطراز السامراوي، مما يدل على وجود حوار معماري مستمر" (السلطاني، 2002، صـ189). وقد انتقل المهندسون والمعماريون بين المدن حاملين معهم التقنيات والأساليب الجديدة. أسهمت الترجمة في تعزيز التواصل الحضاري بين المدن العباسية، حيث انتقلت الأعمال المترجمة من المراكز الثقافية الكبرى إلى غيرها. يذكر ابن النديم في "الفهرست" أن "بيت الحكمة في بغداد كان يوزع الكتب المترجمة على مكتبات سامراء والفسطاط، مما سهل وصول المعرفة اليونانية والفارسية إلى مختلف الأقاليم" (ابن النديم، 1996، صـ234). وقد أدى هذا إلى توحيد المصطلحات العلمية والمفاهيم الفكرية في العالم الإسلامي. في المجال الاقتصادي، ساهمت شبكات التجارة في نقل المنتجات الثقافية والفنية بين المدن العباسية. يبين الدكتور رشدي البدراوي أن "طرق القوافل التجارية لم تنقل البضائع المادية فقط، بل نقلت معها الأفكار والمنتجات الثقافية، مما جعل منها قنوات للتبادل الحضاري" (البدراوي، 2001، صـ312). وقد انتقلت through هذه الطرق الكتب والأدوات العلمية والأعمال الفنية.استمرت هذه الشبكات الثقافية في أداء دورها رغم التغيرات السياسية، حيث حافظت المدن العباسية على دورها في التواصل الحضاري حتى بعد ضعف السلطة المركزية. يخلص الدكتور جمال الدين الكيلاني إلى أن "شبكات التواصل الثقافي بين المدن الإسلامية استمرت في العمل بعدة آليات، رغم التحديات السياسية والعسكرية التي مرت بها الدولة العباسية" (الكيلاني، 2004، صـ356).

4.2 التفاعل الحضاري بين المدن العباسية والثقافات الأخرى

شكّلت المدن العباسية جسوراً للتواصل الحضاري مع الثقافات المجاورة، حيث مثلت مراكز للالتقاء الفكري والتبادل الثقافي بين العالم الإسلامي والحضارات الأخرى. لقد أسهم موقع هذه المدن على طرق التجارة الدولية في تسهيل عملية التفاعل الثقافي، مما جعلها بوتقة تنصهر فيها المؤثرات الحضارية المختلفة.

يذكر ابن خرداذبة في "المسالك والممالك" أن "طرق التجارة العالمية التي تمر بالمدن العباسية كانت تحمل مع البضائع الأفكار والعلوم، مما جعل منها قنوات للتواصل الحضاري" (ابن

خرداذبة، 1991، صـ178). تميزت بغداد كعاصمة للدولة العباسية بدور محوري في استقبال التراث الثقافي للشعوب الأخرى، حيث أصبحت مركزاً للترجمة والتعريب. يؤكد الدكتور عبد العزيز الدوري أن "بيت الحكمة في بغداد مثل أعظم مؤسسة علمية في العصور الوسطى، حيث ترجمت فيه علوم الأمم السابقة، وتمت صياغتها ضمن الرؤية الإسلامية" (الدوري، 2001، صـ289). وقد عمل في بيت الحكمة مترجمون من مختلف الخلفيات الثقافية، ساهموا في نقل التراث الفارسي والهندي واليوناني إلى العربية.

في مجال التأثير الفارسي، امتزجت التقاليد الإدارية والفنية الفارسية بالثقافة العربية الإسلامية، مما أنتج نموذجاً حضارياً متميزاً. يصف المسعودي هذا الامتزاج قائلاً: "كان للفرس تأثير بارز في النظام الإداري العباسي، كما ظهر تأثيرهم في الفنون والعمارة، خاصة في قصور بغداد وسامراء" (المسعودي، 2005، جـ3، صـ267). وقد تجلى هذا التأثير في التنظيم الإداري والدواوين والنظام الضريبي.

أما التأثير الهندي فقد تجلى بشكل واضح في مجال العلوم الرياضية والفلكية، حيث نقلت المعرفة الهندية عبر التجار والعلماء. يبين الدكتور أحمد فكري أن "الخوارزمي استفاد من الرياضيات الهندية في تطوير علم الجبر، كما استفاد الفلكيون من الزيجات الهندية في تطوير الحسابات الفلكية" (فكري، 1998، صـ201). وقد أدخل العلماء الهنود نظام الأرقام الهندية الذي طوره المسلمون later إلى الأرقام العربية. وفي مجال التأثير اليوناني، شكّلت حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية أحد أهم روافد المعرفة في المدن العباسية. يذكر ابن النديم أن "حنين بن إسحاق وثابت بن قرة وغيرهما من المترجمين، نقلوا التراث الطبي والفلسفي اليوناني إلى العربية، مع إضافة شروحات وتعليقات مهمة" (ابن النديم، 1996، صـ189). وقد تمت هذه الترجمات في مراكز علمية متعددة مثل بغداد والفسطاط. في المجال الفني والمعماري، تأثرت المدن العباسية بالأساليب الفنية للشعوب المجاورة، مع الاحتفاظ بالهوية الإسلامية. يشير الدكتور زكي محمد حسن إلى أن "العمارة العباسية في سامراء تأثرت بالعناصر المعمارية الساسانية، لكنها طورتها لتتناسب مع التقاليد الإسلامية" (حسن، 2001، صـ312). وقد ظهر هذا التأثير في استخدام العقود والإيوانات والقباب. كما أسهمت المدن العباسية في نشر الثقافة الإسلامية إلى المناطق المجاورة، من خلال البعثات الدبلوماسية والتجارية. يبين الدكتور حسين مؤنس أن "البعثات الدبلوماسية بين الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين وغيرهم، كانت تحمل معها الهدايا والكتب، مما ساهم في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية" (مؤنس، 1998، صـ245). وقد أدى هذا إلى تأثر بعض الحضارات المجاورة بالإنجازات الإسلامية.

في مجال التأثير الصيني، انتقلت العديد من التقنيات والصناعات عبر طرق التجارة البرية

والبحرية. يذكر الدكتور محمد رمزي أن "الصينيين نقلوا إلى المسلمين صناعة الورق والحرير والخزف، بينما استفاد الصينيون من التقنيات الإسلامية في الفلك والطب" (رمزي، 1999، صـ278). وقد تطورت هذه الصناعات في المدن العباسية وأصبحت جزءاً من الهوية الحضارية الإسلامية.

أما في مجال الأدب واللغة، فقد تأثرت الثقافة العربية بآداب الأمم الأخرى، مع الحفاظ على أصالة اللغة العربية. يؤكد الدكتور قاسم عبده قاسم أن "الأدب العربي في العصر العباسي تأثر بالأدب الفارسي من حيث الموضوعات والأساليب، لكنه حافظ على خصوصيته اللغوية والدينية" (قاسم، 2003، صـ334). وقد ظهر هذا التأثير في الشعر والنثر والفنون القصصية. وفي المجال العلمي، تميزت المدن العباسية بقدرتها على دمج المعارف الوافدة مع الإضافة والإبداع. يذكر الدكتور جمال الدين الكيلاني أن "العلماء المسلمين لم يقتصروا على نقل المعارف، بل طوروها وأضافوا إليها، مما أنتج علوماً جديدة ذات هوية إسلامية" (الكيلاني، 2004، صـ367). وقد ظهر هذا جلياً في علوم الطب والكيمياء والرياضيات. استمر هذا التفاعل الحضاري عبر القرون، حيث حافظت المدن العباسية على دورها كجسور للتواصل بين الشرق والغرب. يخلص الدكتور رشدي البدراوي إلى أن "التفاعل الحضاري الذي حدث في المدن العباسية مثل مرحلة مهمة في تاريخ الحضارة الإنسانية، حيث تم فيها دمج أفضل ما أنتجته الحضارات المختلفة" (البدراوي، 2001، صـ389).

ختاماً، إن المدن العباسية مثلت نموذجاً راقياً للتفاعل الحضاري، حيث جمعت بين الأصالة والانفتاح، والاحتفاظ بالهوية والقدرة على الاستفادة من إنجازات الآخر. لقد استطاعت هذه المدن من خلال سياسة التسامح والانفتاح، والتشجيع على الترجمة والبحث العلمي، أن تكون جسوراً للتواصل بين الحضارات، ساهمت في إثراء التراث الإنساني وتطويره.

الخاتمة

تمثل الدراسة التي تناولت المدن العباسية خارج بغداد نموذجاً حياً لتعدد المراكز الحضرية في الحضارة العربية الإسلامية، وكشف البحث كيف أن هذه المدن لم تكن مجرد امتدادات تابعة للعاصمة، بل شكلت كيانات حضرية مستقلة ذات شخصية مميزة، ساهمت في بناء الصرح الحضاري للدولة العباسية. لقد تجلى من خلال الدراسة أن هذه المدن – وعلى رأسها سامراء والفسطاط والقاهرة – مثلت أنظمة متكاملة جمعت بين الوظيفة السياسية والاقتصادية والثقافية، مما أضفى عليها أهمية استثنائية في التاريخ العربي الإسلامي. لقد أثبتت هذه المدن قدرة فائقة على التكيف مع المتغيرات السياسية والتحولات الاجتماعية، حيث حافظت على دورها الحضاري

رغم تغير الأنظمة الحاكمة وتبدل الظروف التاريخية. فسامراء التي أسست كعاصمة بديلة لبغداد، استطاعت أن تطور نموذجاً عمرانياً متميزاً، ومركزاً اقتصادياً مهماً، ومنارة ثقافية لامعة، وإن لفترة زمنية محدودة. بينما مثلت الفسطاط نموذجاً للاستمرارية الحضارية، حيث حافظت على دورها كقلب اقتصادي وثقافي لمصر عبر العصور الإسلامية المتعاقبة. أما القاهرة الفاطمية فقد جسدت قمة النضج الحضاري، حيث جمعت بين العمارة الفاخرة والاقتصاد المزدهر والحركة العلمية المتطورة. ويكشف لنا التتبع التاريخي لهذه المدن أن سر نجاحها وقدرتها على البقاء والتأثير لم يكن قائماً على العوامل السياسية فحسب، بل اعتمد بشكل أساسي على مقوماتها الاقتصادية والثقافية الذاتية. فالتنوع الاقتصادي، والتكامل بين القطاعات الإنتاجية، ووفرة الموارد، والموقع الاستراتيجي على طرق التجارة الدولية، كلها عوامل أسهمت في تعزيز مكانة هذه المدن واستقلاليتها النسبية. كما أن التنوع الثقافي، وحرية الحركة الفكرية، وازدهار المؤسسات التعليمية، ورعاية الدولة للعلوم والفنون، شكلت مقوماً أساسياً من مقومات قوة هذه المراكز الحضرية. لقد أسهمت هذه المدن بشكل فاعل في خلق نموذج للحضارة الإسلامية المتعددة المراكز، التي تتفاعل فيها التيارات الفكرية والاقتصادية المختلفة، دون أن تفقد وحدتها الجوهرية أو هويتها الإسلامية. وقد مثلت شبكات التواصل بين هذه المدن نظاماً متقدماً للتبادل الثقافي والعلمي، سهل انتقال المعرفة وتداول الأفكار، مما أسهم في إثراء الحركة الفكرية في العالم الإسلامي برمته. كما تجدر الإشارة إلى أن هذه المدن لم تكن منعزلة عن محيطها الحضاري، بل تفاعلت مع الثقافات المجاورة، واستفادت من إنجازاتها، وأسهمت في الوقت نفسه في إثراء التراث الإنساني. وقد مثلت جسوراً للتواصل بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، مما جعلها نقاط التقاء للحضارات المختلفة، ومراكز إشعاع للفكر الإسلامي. وفي الختام، دراسة المدن العباسية خارج بغداد تفتح آفاقاً جديدة للبحث في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وتكشف عن الأبعاد المتعددة لهذه الحضارة التي لم تكن محصورة في مكان أو زمان. كما تبرز أهمية الاستمرار في دراسة النماذج الحضارية الإسلامية المختلفة، والبناء على ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج، للوصول إلى فهم أعمق لطبيعة الحضارة الإسلامية وآليات تطورها. وتظل هذه المدن شواهد حية على عظمة الحضارة العربية الإسلامية وقدرتها على الإبداع والابتكار، وتقديم نماذج رائدة في التخطيط العمراني والإدارة الاقتصادية والتنمية الثقافية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ/967م). (1992). الأغاني. بيروت:

دار إحياء التراث العربي.

2. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم (ت 668هـ/1270م). (2001). عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت: دار مكتبة الحياة.
3. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ/871م). (1995). فتوح مصر والمغرب. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
4. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت نحو 280هـ/893م). (1991). المسالك والممالك. ليدن: بريل.
5. ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت 809هـ/1407م). (1999). الانتصار لواسطة عقد الأمصار. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
6. ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681هـ/1282م). (1994). وفيات الأعيان. بيروت: دار صادر.
7. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت نحو 367هـ/977م). (1938). صورة الأرض. ليدن: بريل.
8. ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت 385هـ/995م). (1996). الفهرست. طهران: أساطير.
9. ابن مماتي، الأسعد بن مماتي (ت 606هـ/1209م). (1991). قوانين الدواوين. القاهرة: مكتبة مدبولي.
10. الثعالبي، عبد الملك بن محمد (ت 429هـ/1038م). (1996). يتيمة الدهر. بيروت: دار الكتب العلمية.
11. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ/1348م). (1985). سير أعلام النبلاء. بيروت: مؤسسة الرسالة.
12. الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت 388هـ/997م). (1986). الديارات. بغداد: مطبعة المعارف.
13. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/923م). (1997). تاريخ الرسل والملوك. القاهرة: دار المعارف.
14. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م). (1981). صبح الأعشى في صناعة الإنشا. بيروت: دار الكتب العلمية.
15. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت 350هـ/961م). (2003). الولاة والقضاة. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

16. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346هـ/956م). (2005). مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت: المكتبة العصرية.
17. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/1442م). (1997). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بيروت: دار الكتب العلمية.
18. اليعقوبي، أحمد بن إسحاق (ت 284هـ/897م). (1999). كتاب البلدان. بيروت: دار صادر.

ثانياً: المراجع والدراسات الحديثة

1) الكتب والدراسات

1. البدراوي، رشدي. (2001). المدن الإسلامية في العصور الوسطى. القاهرة: دار الغريب.
2. الدوري، عبد العزيز. (2001). دراسات في العصور العباسية المتأخرة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
3. السهلي، عبد الله. (2006). التخطيط العمراني في الحضارة الإسلامية. الرياض: دار الملك عبد العزيز.
4. السلطاني، خالد. (2002). تخطيط المدن الإسلامية. الرياض: دار الملك عبد العزيز.
5. الحوراني، محمود أحمد. (2005). تاريخ الفنون الإسلامية. القاهرة: دار الغريب.
6. الهاشمي، محمد. (1998). الحياة العلمية في العصر العباسي. دمشق: دار الفكر.
7. حسن، زكي محمد. (2001). التصوير في الإسلام عند الفرس والترك. القاهرة: المكتبة الأكاديمية.
8. شلبي، أحمد. (2002). تاريخ التعليم في الإسلام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
9. عاشور، سعيد عبد الفتاح. (2000). مصر في العصور الوسطى. القاهرة: دار النهضة العربية.
10. عبد العليم، فهمي. (2003). الدور الحضاري للفسطاط. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
11. عبد الرزاق، علي. (2003). دراسات في الحضارة الإسلامية. القاهرة: دار الشروق.
12. علي، عصام محمد. (2003). الفنون الإسلامية في العصر العباسي. بغداد: دار الشؤون الثقافية.
13. فكري، أحمد. (1998). الحياة الاقتصادية في مصر الإسلامية. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
14. قاسم، قاسم عبده. (2003). دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي. القاهرة: عين للدراسات.

15. ماجد، عبد المنعم. (2002). تاريخ الحضارة الإسلامية في مصر. القاهرة: دار المعارف.
16. محفوظ، حسين علي. (1999). النقود الإسلامية في العصر العباسي. بغداد: دار الشؤون الثقافية.
17. مؤنس، حسين. (1998). تاريخ مصر الإسلامية. القاهرة: دار المعارف.
18. رمزي، محمد. (1999). القاهرة تاريخها وآثارها. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
19. الكيلاني، جمال الدين. (2004). الاقتصاد في العصر العباسي. بيروت: دار الفكر المعاصر.
20. الكيلاني، نجيب. (2004). معالم الحضارة في العصر العباسي. عمّان: دار الأمل.

2) المقالات والدوريات

1. الجوذري، محمد حمزة عبد الحسين. (2025). التطور العمراني في بغداد وسامراء خلال العصر العباسي. مجلة العلوم الإنسانية (جامعة بابل)، مج 32، ع 3، ص 4660–4680. DOI: 10.33855/0905-032-003-019.
2. حميد، وفاء عدنان، ورجه، الاء حماد. (2023). تخطيط المدن في مصر الإسلامية: الفسطاط أنموذجًا. لارك، مج 15، ع 3/الجزء 2، ص 365–381. DOI: 10.31185/lark.Vol2.Iss50.3168.